المحاضرة 10: فن الأوبرا عند العرب

من المعروف أن الشعر العربي نشأ نشأة غنائية إلا أنه لم يتطور ليشكل ظاهرة مسرحية كما اليونان فهذا الأمر مرتبط بالحياة المدينية المستقرة وديموقراطية الحكم وطبيعة الثقافة لدى كل شعب.

كان القرن التاسع عشر حيث شهدت بيروت ودمشق وحلب قدوم فرق إيطالية وفرنسية تعرض مسرحيات غنائية. كما أتاحت رحلات بعض التجار والأشخاص إلى روما ومدن أوربية أخرى حضور بعض العروض الأوبرالية من المسرح الغنائي مما دفع مارون النقاش الذي كان يتردد على إيطاليا إلى القيام بمغامرته المسرحية الريادية وإدخال الغناء عليها للتذويق الجمالي نزولا عند رغبة الجمهور.

شهد القرن التاسع عشر مولد المسرح الغنائي العربي بشكله البسيط على يد أبي خليل القباني ,وقد قدم مجموعة من المسرحيات الغنائية في دمشق ومصر منها: ناكر الجميل .أنس الجليس. ولاّ دة أو عفة المحبين. الأمير محمود. هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب وقوت القلوب. لقد استهوت الأوبريت المسرحيَّ العربي والجمهور معاً أكثر من الأوبرا, وبالرغم من أن ما أتى به القباني هو فن لا تتوفر فيه شروط الأوبريت تماماً بمفهومها الغربي إلا أنه قدم مطبلخً عربياً مشرقياً للأوبريت فيه الإنشاد والموشحات ورقص السماح, وقد وحاول تفجير الموسيقى العربية من الداخل, فثمة تمثيل وغناء ورقص, وقد أصاب زكي طليمات في وصفه فن القباني بقوله: »ففي دمشق قام مسلم عريق في إسلامه الشيخ أبو خليل القباني يضع مسرحيات عربية مقتبسة مواضيعها وحوادثها من التاريخ العربي ويؤديها فوق المسرح بعد أن شحنها بألوان من الإنشاد الفردي والجماعي والرقص العربي السماعي«.

وقد سار على نهجه تلميذه الشيخ سلامة حجازي وفرقته وقدم مسرحيات يتخللها الغناء منها: تسبا أو شهيدة الغرام والبرج الهائل وروميو وجولييت , ثم جاء سيد درويش ليقدم أوبريتات : شهرزاد.. البروكة. العشرة الطيبة.ولا بد أن نذكر قامة كبيرة في فن الأوبريت هي الموسيقار الحلبي كميل شمبير (1892ـ 1934م) الذي درس الموسيقى في مدينته حلب وتابع دراسة الموسيقى الغربية في إيطاليا واشتغل في الأوبرا في أمريكا ثم عاد إلى حلب , ورحل إلى مصر سنة 1914م

وترأس فرقة نجيب الريحاني وكتب له ثلاث مسرحيات بأسلوب الأوبريت – كوميديا غنائية– منها: حمُار وحلاوة . على كيفك1918 »و1920« . ثم اتصل بأمين عطا الله وكتب له عددا من الأوبريتات وساهم بإبراز شخصية كشكش بك حتى غدا المؤلف المسرحي والغنائي لهاتين الفرقتين , ويختلف مسرحه عن مسرح القباني في أنه درس فن الأوبريت دراسة علمية وميدانية, وفي أن الموسيقى والغناء لديه هما الأساس في العرض. ومن مسرحياته الغنائية : الفنون الجميلة . عقبال عندكم. الغريب البائس. شهر العسل .النونو . أما العمل الكبير الذي ألفه كميل شمبير ولم يعرض فهو أوبرا توسكا التي ترجمها عن الإيطالية واستغرق تلحينها عامين. وعندما عاد كميل شامبير إلى حلب عام 1922م قدم أوبريت حلب على المسرح.

وفي أوائل الثلاثينات بحلب اشترك الشاعر عمر أبو ريشة والموسيقاران علي الدرويش وأحمد الإبري في تأسيس النادي الموسيقي , وكان درة أعماله تقديم أوبريت ذي قار مسرحية عمر أبي ريشة المشهورة. وقد تابع عمر كتابة المسرحيات الشعرية والغنائية فصدر له أوبريت الطوفان تجري أحداثها في حانة تحت الأرض و أوبريت عذاب وموضوعها الفن والحب. وفي أواسط أربعينات القرن العشرين نشط المسرح الغنائي في حلب وقدمت فرقة دنيا التمثيل ثلاث مسرحيات غنائية هي: الكارثة عام 1945م هي ألحان ودموع وقد قدمتها على مسرح سينما الرويال . تأليف حسين سالونيك ,ألحان محمد رجب, والثالثة بعنوان التضحية عام 1948م تأليف حكمت منقاري وألحان الأخوين نديم وإبراهيم الدرويش , وقد قاد الأوركسترا يوسف حجة وغنى في هذا العرض حسن بصال وصباح فخري. وفي عام 1968 قدم الموسيقار نوري اسكندر أوبريت الملك والربيع.وفي صيف عام 2002 نقل اسكندر نشاطه إلى هولندا وقدم أوبريت عابدات باخوس ليوربيدس. وفي خريف عام 2002 قدمت فرقة الأمل مسرحية استعراضية غنائية بعنوان جبل الماس وضع الموسيقى والألحان سمير كويفاتي واشتركت في الاستعراض فرقة سارادار آباد للرقص الشعبي.

أما دمشق فقد شهدت تقديم بعض المسرحيات الغنائية ومنها »يوم من أيام الثورة السورية ,« كتبها حكمت محسن , وقام الموسيقار صلحي الوادي بتضمينها أغاني شعبية صاغها في قوالب موسيقية غربية أدتها فرقة سمفونية مصغرة وفرقة للغناء والرقص الشعبي.

وفي عام 1966 قدمت أوبريت وردة على مسرح معرض دمشق الدولي , تأليف نجاة قصاب حسن وألحان عبد السلام سفر ,وأدت الرقصات فرقة أمية مع أوركسترا فرقة إذاعة دمشق . وهي أوبريت شعبية تحكي قصة حب ريفية .

على أن التجربة المستمرة والمتميزة في الدراما الموسيقية كانت على يد الأخوين رحباني في لبنان ثم استمرت على يد الأبناء منهما في أسلوب أكثر تطويراً .ومهما قيل عن أعمال الأخوين رحباني عاصي ومنصور من أنها تتصف بالبساطة والبدائية إلا أنها حملت إلينا نكهة الريف اللبناني ومجتمعه وقصصه بالإضافة إلى القصص التاريخية للمنطقة وجميعها كانت معدّة تأليفاً وألحاناً وموسيقى في مطبخ عربي لبناني. وكانت المطربة الكبيرة فيروز نجم هذه المسرحيات الغنائية مع كبار المطربين مثل نصري شمس الدين, ومنذ عام 1961 وحتى عام 1984 تتالت مسرحيات الأخوين رحباني الغنائية : موسم العز ,البعلبكية, جسر القمر, عودة العسكر, الليل والقنديل, بياع الخواتم (وهي مسرحية مغناة من أولها إلى آخرها), دواليب الهوا, أيام فخر الدين, هالة والملك, جبال الصوان, يعيش يعيش, ناطورة المفاتيح, ناس من ورق, المحطة ,لولو, ميس الريم, بترا, المؤامرة مستمرة, الربيع السابع.

بالرغم من أن الذائقة العربية تهوى الموسيقا والغناء إلا أن العروض الأوبرالية تكاد تكون معدومة, وعروض الأوبريت أصبحت قليلة عما كانت عليه في القرن الماضي ,وربما يعود ذلك إلى تكاليفها المرتفعة, ومتطلباتها من التأليف والتلحين والأصوات القديرة, ثم إلى وفود الاتجاهات التجريبية الحديثة على المسرح العربي,وأخيراً إلى انشغال المسرحيين بالراهن السياسي والاجتماعي بعد أن أصبح الوجود العربي مهدداً بالأخطار.